أن يصيب أساليبه ضعف أو وهن ، إذ كان يفقه أسرار اللغة فقهاً دقيقاً وكل ما يتصل بتلك الأسرار من رونق وبهاء وجمال .

أبو نواس (١)

إذا مضينا بعد بشار إلى الجيل الذى خلفه رأينا تأثره بالحضارة الفارسية المادية يزداد اتساعاً كما تزداد ثورته على العُرْف والخلق والدين الحنيف ، حتى لتتحول فى بعض جوانبها إلى صياح وعجيج وضجيج ، وطبيعى أن ذلك لم يكن عاماً بحيث يشمل الجيل كله ، فقد كان هناك الفقهاء والوعاظ وأهل الصلاح ، إنما كان ذلك يَسْرِى بين نفر من الشعراء الذين كانوا يختلفون إلى دور النخاسة وحانات المجون وبيوت اللهو والعبث ، فإن تركوها فإلى دورهم التى حوّلوها إلى مقاصف للخمر والغناء يتطارحون فيها أشعارهم المعبرة عن غرائزهم وكل ما اقترن بها من شذوذ الغزل بالغلمان .

وأبو نواس الحسن بن هانئ هو أهم شاعر يصور هذا الفساد الخلقى من جميع نواحيه ، وهو فارسى الأم والأب أيضاً ، وقد انبهم أمر أبيه وجنسه على بعض الرواة حين رأوه ينتسب لآل الحكم بن الجراح من بنى سعد العشيرة اليمنيين ويتكنى بكنية يمنية هى أبو نواس ، وكذلك حين رأوا فى أخبار هذا الأب أنه كان من جند مروان ابن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، مما جعل بعض المعاصرين يظن أن أباه من أهل الشام بينما ذهب بعض الأقدمين إلى أنه عربى ، وتمادوا فصنعوا له نسبا فى بنى سعد

---

(١) راجع فى أبى نواس وترجمته وشعره الشعر والشعراء ص ٧٧٠ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص١٩٣ والأغانى (طبع الساسى) ١٨/ ٢ وتاريخ بغداد ٧/ ٤٣٦ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٤/ ٢٥٤ وابن خلكان فى الحسن بن ابن هانىء ونزهة الألبّا ص٩٩ وشذرات الذهب ١/ ٣٤٥ ومرآة الجنان ١/ ٤٤٩ والموشح للمرزبانى ص ٢٦٣ وأخبار أبى نواس لابن منظور ولأبى هفان وأبو نواس لعبد الرحمن صدقى وله أيضاً فى خمرياته كتاب ألحان الحان طبع دار المعارف وانظر أيضاً « أبو نواس الحسن بن هانىء » للعقاد نشر مكتبة الأنجلو المصرية ومقالات طه حسين عنه فى حديث الأربعاء الجزء الثانى وديوانه طبعة آصاف ، وقد طبع عدة طبعات .

العشيرة[١] . والصحيح أنه كان مولى فارسيًّا من موالى الجراح بن عبد الله الحكمى[٢] والى خراسان لعهد عمر بن عبدالعزيز ، ويظهر أنه انتظم فى جند الخلافة[٣] ، وقدنزل مع فريق منهم بالأهواز لعهد مروان بن محمد (١٢٧–١٣١ هـ) وهناك تعرَّف على جارية فارسية تسمى جُلَّبان كانت تغزل الصوف وتنسجه ، فاقترن بها ورُزِقَ منها عدةَ أولاد[٤] ، منهم أبو نواس ، واختلف الرواة فى السنة التى ولد فيها ، والراجح أنها سنة مائة وتسع وثلاثين للهجرة[٥] ، ولم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفى أبوه ، فنقلته أمه إلى البصرة ، وقامت على تربيته ، وسرعان ما دفعته إلى الكُتَّاب ، فحفظ القرآن وأطرافًا من الشعر ، وتفتَّحت موهبته ، فأخذ يلهج ببعض الأشعار ، وكان مليحًا صبيحًا[٦] ، ويقال إن صبية وضيئة الوجه مرت به فمازحته ساعة ، ثم رمت إليه بتفاحة معضَّضة ، فقال على البديهة من أبيات[٧] :

ليس ذاك العَضُّ من عيبٍ لها إنما ذاك سؤالٌ لِلقُبَلْ

وشبَّ الغلام فأخذ يختلف إلى حلقات المسجد الجامع يتزود من الدراسات اللغوية والدينية ومن الشعر القديم ومعانيه غير أن أمه رأت أن تلحقه بأحد العطارين ، فكان يذهب فى العشىّ إلى المسجد يستمع من أبى عبيدة أخبار العرب وأيامهم ، ويلتقط من أبى زيد غرائب اللغة ومن خلف الأحمر نوادر الشعر[٨] . وساقه القدر ليتعرَّف على والبة بن الحُباب أحد مجان الكوفة المشهورين ، ويقال إن هذه المعرفة نشأت فى البصرة ، ويقال بل إن عامل الأهواز طلب صاحبه العطار ، فوافقه ، وكان عنده والبة ، فلم تكد تقع عينه على أبى نواس حتى استظرفه ، فحثَّه على أن يصطحبه معه إلى الكوفة ، ولم يتردد الغلام ، فمضى معه[٩] ، ويقال إن الذى أرغبه

---

(١) انظر أخبار أبى نواس لابن منظور ص٣.
(٢) الاشتقاق لابن دريد (نشر الخانجى) ص ٤٠٦ وابن المعتز ص ١٩٤ وأبوهفان ص١٠٩ ، ١٢١ .
(٣) وقيل: بل كان كاتباً من كتاب الخراج وقيل بل كان حائكاً . انظر ابن منظور ص ٤ .
(٤) ابن المعتز ص ١٩٤ وابن منظور ص ٤ وما بعدها .
(٥) ابن المعتز ص ١٩٤ وانظر ابن منظور ص ٥ .
(٦) راجع ابن منظور ص ٦ وابن المعتز ص٢٠٨ وذيل زهر الآداب للحصرى ص ٩٤ .
(٧) ابن المعتز ص ٢٠٨ .
(٧) ابن منظور ص ٢٣ وما بعدها وأبوهفان ص ١٠٩ .
(٩) ابن المعتز ص ١٩٤ وابن منظور ص ٧ وما بعدها وتاريخ بغداد ١٣/٤٨٧ . وأبوهفان ص ١٠٩ .

فيه حسن شعره وما سمعه على لسانه من قوله[١]:

ولها ولا ذنبٌ لهـا حُبٌّ كأَطراف الرماحِ
فى القلب يَجْرَحُ دائماً فالقلبُ مجروحُ النواحى

وربما كان من دوافع رحلته معه وإغراقه — فيما بعد — فى المجون أنه كانت تؤذيه سيرة أمه فى البصرة[٢]، فارتحل معه، وأخذ يَعُبُّ من الخمر كى ينسى أمه، وكان كالمستجير من الرمضاء بالنار، فقد وقع فى حبائل شيطان كبير، غمسه فى كل ما كان يقع فيه من خطايا وآثام هو ورفاقه مجّان الكوفة من أمثال مطيع بن إياس وحماد عَجْرَد، وكأنما كتب القدر عليه أن يصبح ضريبة الفسق والمجون لعصره. وثاب قليلا إلى رشده، فخرج إلى بادية بنى أسد، وظل بينهم حولا كاملا يتزود من ينابيع اللغة[٣]، وعاد، ولكنه ولّى وجهه نحو موطنه، وأخذ يفد على المربد بألواحه للقاء الأعراب الفصحاء[٤]، كما أخذ ينهل من دروس اللغويين ومحاضراتهم وخاصة خلفاً الأحمر الذى حثّه على حفظ الشعر القديم وحفظ المئات من أراجيزه، وكان خلف من أشعر رواة عصره وأعلمهم فحمل عنه أدبا واسعاً، وفيه يقول فى بعض مراثيه له[٥]:

أَوْدَى جِماعُ العلم إذ أَوْدَى خَلَفْ من لا يُعَدُّ العلمُ إلا ما عَرَفْ
كنا متى ما نَدْنُ منه نَغْتَرِفْ روايةً لا تُجْتَنَى من الصُّحُفْ

ولم يكتف بالشعر واللغة فقد طلب الفقه والتفسير والحديث حتى قالوا إنه: «كان عالما فقيهاً عارفا بالأحكام والفُتْيا بصيراً بالاختلاف صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه»[٦]. وطلب أيضاً علم الكلام عند النظام وغيره من المتكلمين، ومرّ بنا فى الفصل السابق كيف كان يستظهر مصطلحاتهم فى أشعاره، وبلغ من إتقانه لهذا العلم أن أكّد بعض الرواة أنه بدأ متكلماً ثم انتقل إلى نظم الشعر[٧]. وقد وصله هذا العلم

---

(١) ابن المعتز ص ٢٠٨.
(٢) ابن منظور ص ٣٢ وما بعدها.
(٣) ابن منظور ص ١٢.
(٤) الحيوان ٦/٢٣٩.
(٥) الديوان ص ١٣٣.
(٦) ابن المعتز ص ٢٠١.
(٧) ابن المعتز ص ٢٧٢ وانظر الحيوان ٤/٤٥٠.

بالثقافات التى كان يتصل بها المتكلمون، ومرت بنا أمثلة تصور أخذه من الثقافات الهندية ، ولا شك فى أن اتصاله بالثقافتين الفارسية واليونانية كان أكثر عمقًا فقد كان فارسى الأصل ، وكان يحسن الفارسية إحسانًا بعيداً جعله يلوك كثيراً من كلماتها فى أشعاره ، ولا بد أنه نظر فيما ترجمه ابن المقفع وغيره من آدابها المختلفة ، وأيضًا لا بد أنه نظر فى الفلسفة اليونانية وما اتصل بها من منطق بحكم تثقفه بعلم الكلام، إذ كان المتكلم لا يتمكن فى هذا العلم ولا يجمع أفكاره « حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة »(١) . وفى خمرياته ما يدل دلالة واضحة على أنه وقف وقوفًا دقيقًا على طقوس المجوس واليهود والنصارى وعقائدهم(٢) . وتفرَّغ للنوادر والملح وحفظ منها شيئًا كثيراً(٣) ، وتصادف أن كان خفيف الروح ظريفًا(٤) ، مما أعدَّه لتكثر مطايباته ومداعباته ، وليكون سميراً للخلفاء والوزراء ويصف ذلك من نفسه ليحيي بن خالد البرمكى، فيقول: (٥)

كم من حديثٍ معجبٍ لى عندكا ... لو قد نبذتُ به إليك لسرَّكا
إنى أنا الرجلُ الحكيم بطبعه ... ويزيد فى علمى حكاية من حكى
أتتبَّع الظرفاءَ أكتب عنهمُ ... كيما أُحدِّث من أُحبُّ فيضحكا

وعلى الرغم من ظرفه لم يكن قريبًا من نفس المرأة التى عاصرته ، فقد كانت تَزْدرى فيه غلاميائه وسيرته الشاذة ، وكانت أول امرأة شغفته حبا ، وهو لا يزال فى البصرة يختلف إلى المربد وحلقات العلماء؛ جنان جارية الثقفيين ، وعقد أبو الفرج فصلا فى أغانيه(٦) لأشعاره فيها وأخباره معها ، ونراه يرسل لها بغزلياته ، وترسل له بسببًها وشتمها ، وهو يزداد بها شغفًا ، حتى ليقول(٧) :

أتانى عنك سَبُّكِ لى فسُبِّى ... أليس جرى بِفيك اسمى فحَسْبى
وقُولى ما بدالكِ أن تقولى ... فما ذا كلُّه إلا لحُبِّى

وغزله فيها غزل عفيف لا فحش فيه . وجذبته بغداد فيمن جذبت من شعراء

---

(١) الحيوان ٢/١٣٤ .
(٢) انظر الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص١٢٣ وأبا هفان ص٢٥ والديارات للشابشتى (طبع بغداد) ص ١٣١ .
(٣) ابن المعتز ص ٢٠١ .
(٤) ذيل زهر الآداب ص ٩٤ .
(٥) ذيل زهر الآداب ص ٢٢ .
(٦) أغانى (طبع الساسى) ١٨/٢ وما بعدها.
(٧) الديوان ص ٣٦٢ .

البصرة ، ففارق موطنه إلى غير رجعة لا باكياً عليه ولا آسفاً ، إذ كانت حياته فيه سلسلة من الإخفاق فى علاقته بجنان وعلاقته بالرفاق حتى كان يشعر كأنه سليب الحرية ، وفى ذلك يقول (١) :

أيا من كنت بالبَصْرَ ة أصفى لهم الوُدَّا
ومن كانوا مــوالىَّ ومن كنت لهم عَبْدا
ومن قد كنت أرعاه وإن ملَّ وإن صَدَّا
شربنا ماءَ بغدادٍ فأنسانا كم جِــدَّا
فلا تَرْعوا لنا عَهْدا فما نَرْعَى لكم عَهدا

ولم يلبث حين قدم بغداد أن قدَّمه هرثمة بن أعين إلى الرشيد فمدحه ونال جوائزه ، وأخذ ينفقها فى مباذله ، غير تارك حانةً بالكرخ أو فى ضواحى بغداد إلا ارتادها ، ملمًّا من حين لآخر بدير من الأديرة المنبثَّة على شواطئ دجلة ، وكأنما تحولت حياته إلى حانة كبيرة يقترف فيها كل ما لذَّ له من إثم وفجور ، وارتقى ذلك إلى سمع الرشيد فحبسه مراراً لعله يزدجر (٢) ، ولكنه كان سرعان ما يعود إلى سيرته السيئة حين تُرَدُّ له حريته . وقد غضب عليه غضباً شديداً حين رآه يهجو عدنان ويفتخر بقحطان ومواليه اليمنيين ، فأطال حبسه (٣) ، ثم عاد فعفا عنه ، وربما كان للبرامكة أثر فى هذا العفو المتكرر ، فقد كانوا يقربونه منهم ويغدقون عليه من برِّهم ونوالهم الغَمْر ، ونراه يحزن عليهم حزناً عميقاً حين ينكبهم الرشيد سنة ١٨٧ للهجرة ويرثيهم بمثل قوله (٤) :

لم يظلم الدهرُ إذ توالتْ فيهم مصيبــاتُه دِراكا
كانوا يجيرون مَنْ يُعادى منــه فعاداهمُ لذاكا

ويولِّى وجهه نحو الفسطاط بمصر ، ليمدح والى الخراج بها الخصيب بن عبد الحميد ، وكان فارسياً مثله . وقد استقبله استقبالا حافلا ، وأضفى عليه من

---

(١) الديوان ص ١٦٦ .
(٢) أبوهفان ص ١٠٠ والموشح ص ٢٨٧ .
(٣) ابن منظور ص ١٥ .
(٤) أبوهفان ص ١٢١ .